

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ

مِنْ

أَضْوَاءِ الْبَيِّنَاتِ

تأليف

الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار  
ابن بكين الشنقيطي

إعداد

أ.د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي  
أستاذ الإعلام الإسلامي بكلية الدعوة  
والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الهدى النبوي

مصر - المنصورة

دار الفضية

الرياض - السعودية

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبيك حولاً كاملاً فقد اعتذر  
ولا يلزم في نظري أن الاسم بمعنى المسمى هنا لإمكان كون المراد نفس الاسم؛  
لأن أسماء الله أُلحِد فيها قوم ونزهها آخرون عن كل ما لا يليق، ووصفها الله بأنها  
بالغة غاية الحسن، وفي ذلك أكمل تنزيه لها لأنها مشتملة على صفاته الكريمة، وذلك  
في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَدْعُوا فَلَهُ  
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

ولسنا نريد أن نذكر كلام المتكلمين في الاسم والمسمى، هل الاسم هو المسمى  
أو لا؟ لأن مرادنا هنا بيان معنى الآية. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة الحديد

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قد قَدَّمنا مراراً أن التسبيح هو تنزيه الله عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وأصله  
في اللغة الإبعاد عن السوء، من قولهم سبح: إذا صار بعيداً، ومنه قيل للفرس: سابح؛  
لأنه إذا جرى يبعد بسرعة، ومن ذلك قول عنترة في معلقته:

إذ لا أزال على رحالة سابح      نهر تعاوره الكماة مكلّم  
وقول عباس بن مرداس السلمي:

لا يغرسون فسيل النخل حولهم      ولا تخاور في مشتاهم البقر  
إلا سوابح كالعقبان مقربة      في دارة حولها الأخطار والفكر

وهذا الفعل الذي هو سبح قد يتعدى بنفسه بدون اللام كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ  
بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الم: ٣١].  
[الإنسان]، وقد يتعدى باللام كقوله هنا: سبح لله، وعلى هذا فسبحه وسبح له لغتان  
كنصحه ونصح له. وشكره وشكر له، وذكر بعضهم في الآية وجهاً آخر، وهو أن  
المعنى: سبح ما في السماوات والأرض، أي أحدث التسبيح لأجل الله أي ابتغاء  
وجهه تعالى. ذكره الزمخشري وأبو حيان، وقيل: سبح لله أي صلى له. وقد قَدَّمنا أن  
التسبيح يطلق على الصلاة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن أهل السماوات والأرض يسبحون لله؛ أي  
ينزهونه عما لا يليق، بينه الله - جلّ وعلا - في آيات أخر من كتابه كقوله تعالى في

سورة الحشر: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر].  
 وقوله في الصف: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الصف].  
 أيضاً، وقوله في الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ  
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة]، وقوله في التغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ  
 الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن].

وزاد في سورة بني إسرائيل، أن السماوات السبع والأرض يسبحن الله مع ما فيهما  
 من الخلق وأن تسبيح السماوات ونحوها من الجمادات يعلمه الله ونحن لا نفقهه أي لا  
 نفهمه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ  
 بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على  
 أن تسبيح الجمادات المذكور فيها وفي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾  
 [الأنبياء: ٧٩]، ونحو ذلك تسبيح حقيقي يعلمه الله ونحن لا نعلمه.

والآية الكريمة فيها الرد الصريح، على من زعم من أهل العلم، أن تسبيح  
 الجمادات هو دلالة إيجادها على قدرة خالقها؛ لأن دلالة الكائنات على عظمة خالقها  
 يفهمها كل العقلاء، كما صرح الله تعالى بذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
 وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْمُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ  
 يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وأمثال ذلك من الآيات كثيرة في القرآن.

وقد قدّمنا إيضاح هذا في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ  
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَابِلِ﴾ [الرعد]، وفي سورة الكهف،  
 في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ الآية [الكهف: ٧٧]، وفي  
 سورة الأحزاب، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
 وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وفي غير ذلك من المواضع.

وقد عبّر تعالى هنا في أول الحديد بصيغة الماضي في قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ وكذلك هو  
 في الحشر، والصف، وعبر في الجمعة والتغابن، وغيرهما بقوله: يسبح، بصيغة المضارع.  
 قال بعض أهل العلم: إنما عبر بالماضي تارة وبالمضارع أخرى ليبين أن ذلك  
 التسبيح لله، هو شأن أهل السماوات وأهل الأرض، ودأبهم في الماضي والمستقبل،  
 ذكر معناه الزمخشري وأبو حيان.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ قد قدّمنا معناه مراراً وذكرنا أن العزيز، هو الغالب  
 الذي لا يغلبه شيء، وأن العزّة هي الغلبة، ومنه قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾  
 [المنافقون: ٨]. وقوله: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْحُطَابِ﴾ [ص: ٢٣]: أي غلبني في الخصام، ومن  
 أمثال العرب من عزّ بزّ، يعنون من غلب استلب، ومنه قول الخنساء:

كأن لم يكونوا حمى يختشى إذ الناس إذ ذاك من عز بزا

والحكيم، هو من يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها.

وقوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، غلب فيه غير العاقل. وقد قدمنا في غير هذا الموضع، أنه تعالى تارة يغلب غير العاقل، في نحو ما في السماوات وما في الأرض لكثرتة. وتارة يغلب العاقل لأهميته، وقد جمع المثال للأمرين قوله تعالى في البقرة: ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِينُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]، فغلب غير العاقل في قوله: ما في السماوات، وغلب العاقل في قوله: قانتون.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

قوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، قد قدمنا إيضاحه في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيَّتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]. إلى قوله تعالى: ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، وفي سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾؛ قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَىٰ الْيَوْمَ الْيَوْمَ﴾ الآية [الأعراف: ٥٤]. وذكرنا طرفاً صالحاً من ذلك في سورة القتال في كلامنا الطويل على قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد].

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

قد قدمنا إيضاحه في أول سورة سبأ، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ﴾ [سبأ].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾.

قد قدمنا إيضاحه وبيننا الآيات القرآنية الدالة على المعية العامة، والمعية الخاصة، مع بيان معنى المعية في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي ينزل على عبده محمد ﷺ آيات بينات؛ أي واضحات، وهي هذا القرآن العظيم؛ ليخرج الناس بهذا القرآن العظيم المعبر عنه بالآيات البينات من الظلمات؛ أي من ظلمات الكفر والمعاصي إلى نور التوحيد والهدى، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في قوله تعالى في الطلاق: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِيكُم مِنَ اللَّهِ أَنبَاءٌ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٦﴾ رَسُولًا يَلْقَاكُمْ ءَايَاتٍ اللَّهُ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠ - ١١]، وآية الطلاق هذه بينت أن آية الحديد من العام المخصوص، وأنه لا يخرج بهذا القرآن العظيم من الظلمات إلى النور إلا من وفقهم الله للإيمان والعمل الصالح، فقوله في

الحديد: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾؛ أي بشرط الإيمان والعمل الصالح بدليل قوله: ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الآية.

فالدعوة إلى الإيمان بالقرآن والخروج بنوره من ظلمات الكفر عامة، ولكن التوفيق إلى الخروج به من الظلمات إلى النور خاص بمن وفقهم الله، كما دلت عليه آيات الطلاق المذكورة والله - جلّ وعلا - يقول: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون القرآن نوراً يخرج الله به المؤمنين من الظلمات إلى النور، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَهُم بَرُهْنٌ مِّن رَّبِّكُم وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُم نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [١٥] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ [١٦] [المائدة]. وقوله تعالى: ﴿فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]. وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا﴾ .. [الشورى: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَن عَلَيْهَا﴾ .. الآية [مريم: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَوْمَ جَنَّتْ نَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٢٢]. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنّ المؤمنين يوم القيامة، يسعى نورهم بين أيديهم وبأييمانهم، وهو جمع يمين، وأنهم يقال لهم: ﴿بَشْرِكُمْ يَوْمَ جَنَّتْ نَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة مما ذكرنا، جاء موضحاً في آيات أخر، أما سعي نورهم بين أيديهم وبأييمانهم، فقد بيّنه تعالى في سورة التحريم، وزاد فيها بيان دعائهم الذي يدعون به في ذلك الوقت وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْرَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْمَنَّا لَنَا نُورَنَا﴾ الآية [التحريم: ٨].

وأما تبشيرهم بالجنات، فقد جاء موضحاً في مواضع أخر، وبيّن الله فيها أن الملائكة تبشروهم وأن ربهم أيضاً يبشروهم كقوله تعالى: ﴿بِشْرِهِمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [٢١] خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [٢٢] [التوبة]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [٢٠]؛ إلى قوله: ﴿تَزَلَا مِن عَفْوِرٍ رَّحِيمٍ﴾ [٢٣] [فصلت]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَادُّوهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرْتَمِبْنَ وَأَرْتَمْتُمْ وَعُرَّتْكُمْ

الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّكَم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾. الضمير المرفوع في «ينادونهم» راجع إلى المنافقين والمنافقات، والضمير المنصوب راجع إلى المؤمنين والمؤمنات، وقد ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن المنافقين والمنافقات إذا رأوا نور المؤمنين يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، قالوا لهم: ﴿أَنْظَرُونَا نَقِيسَ مِنْ نُورِكُمْ﴾، وقيل لهم جواباً لذلك: ﴿أَنْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾، وضرب بينهم بالسور المذكور أنهم ينادون المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾، أي في دار الدنيا، كنا نشهد معكم الصلوات ونسير معكم في الغزوات وندين بدينكم؟ قالوا: بلى؛ أي كنتم معنا في دار الدنيا، ولكنكم فتنتم أنفسكم.

وقد قدّمنا مراراً معاني الفتنة وإطلاقاتها في القرآن، وبيننا أن من معاني إطلاقاتها في القرآن الضلال كالكفر والمعاصي، وهو المراد هنا، أي ﴿فَنَسْتَبِئْكُمْ﴾: أي أضللتموها بالنفاق الذي هو كفر باطن، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَلْبُهُمْ كَافٍ لَا تَكُونُ فِئْتَةً﴾ [البقرة: ١٩٣]، أي لا يبقى شرك كما تقدم إيضاحه.

وقوله: ﴿وَتَرَبَّصُّمُ﴾؛ التربص: الانتظار، والأظهر أن المراد به هنا تربص المنافقين بالمؤمنين الدوائر؛ أي انتظارهم بهم نوائب الدهر أن تهلكهم، كقوله تعالى في منافقي الأعراب المذكورين في قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ١٠١]، ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [التوبة: ٩٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ﴾؛ أي شككتم في دين الإسلام، وشكهم المذكور هنا وكفرهم بسببه بينه الله تعالى في قوله عنهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَازْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة].

وقوله تعالى: ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِيَّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، الأمانى جمع أمنية، وهي ما يمتنون به أنفسهم من الباطل، كزعمهم أنهم مصلحون في نفاقهم، وأن المؤمنين حقاً سفهاء في صدقهم، أي في إيمانهم، كما بين تعالى ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾... الآية [البقرة: ١١، ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ الآية [البقرة: ١٣]، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الأمانى المذكورة من الغرور الذي اغتروا به جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَىٰ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. إلى قوله: ﴿وَلَا يظَلْمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، والأظهر أنه الموت؛ لأنه ينقطع به العمل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾؛ هو الشيطان، وعبر عنه بصيغة المبالغة، التي هي الفعول لكثرة غروره لبني آدم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، من أنّ الشيطان الكثير الغرور غرهم بالله، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى في آخر القمان: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [القمان: ٣٣]، وقوله في أول فاطر: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ وَإِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۗ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُرٍ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٦﴾﴾ [فاطر].

وقوله تعالى في آية السجدة وآية فاطر المذكورتين: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. وترتيبه على ذلك النهي عن أن يغرهم بالله الغرور، دليل واضح على أن مما يغرهم به الشيطان أن وعد الله بالبعث ليس بحق، وأنه غير واقع، والغرور بالضم الخديعة.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤَخِّدُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنْ يُبَكِّلَ مِنْ أَحَدِهِمْ بِلَاءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَىٰ بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلِدُوا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِمَّنْ يَمْتَصِبُ أَفْوَاجًا وَلَا يَخَفُوا مِنْ أُولَئِكَ خَشَا اللَّهَ فَمِنْ ذَلِكَ مِنْهُ مَن لَّيْسَ لَهُ كَفْرٌ سَائِفٌ فِي اللَّهِ يَأْتِي الْيَوْمَ عَلَىٰ كُلِّ بَلِيٍّ لِّمَن شَاءَ مِنْهُ يَخْتَارُ﴾ [آل عمران: ٩١].

قد قدّمنا مراراً أنّ كل فعل مضارع في القرآن مجزوم بلم، إذا تقدمتها همزة الاستفهام كما هنا فيه وجهان من التفسير معروفان:

**الأول منهما:** هو أنّ تقلب مضارعه ماضوية، ونفيه إثباتاً، فيكون بمعنى الماضي المثبت؛ لأنّ لم حرف قلب تقلب المضارع من معنى الاستقبال إلى معنى الماضي، وهمزة الاستفهام إنكارية فيها معنى النفي، فيتسلط النفي الكامن فيها على النفي الصريح في «لم» فينفيه. ونفي النفي إثبات، فيرجع المعنى إلى الماضي المثبت. وعليه فالمعنى، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلِدُوا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِمَّنْ يَمْتَصِبُ أَفْوَاجًا وَلَا يَخَفُوا مِنْ أُولَئِكَ خَشَا اللَّهَ فَمِنْ ذَلِكَ مِنْهُ مَن لَّيْسَ لَهُ كَفْرٌ سَائِفٌ فِي اللَّهِ يَأْتِي الْيَوْمَ عَلَىٰ كُلِّ بَلِيٍّ لِّمَن شَاءَ مِنْهُ يَخْتَارُ﴾: أي أنّ للذين آمنوا.

**والوجه الثاني:** أن الاستفهام في جميع ذلك للتقرير، وهو حمل المخاطب على أن يقر فيقول: بلى. وقوله: يأن: هو مضارع أنى يأتي إذا جاء إناه أي وقته، ومنه قول كعب بن مالك رضي الله عنه:

ولقد أنى لك أن تناهي طائعاً أو تستفيق إذا نهاك المرشد

فقوله: أنى لك أن تناهي طائعاً، أي جاء الإناء الذي هو الوقت الذي تناهى فيه طائعاً، أي حضر وقت تناهيك، ويقال في العربية: أن يئس كباع يبيع، وأنى يأتي كرمى يرمي، وقد جمع اللغتين قول الشاعر:

ألما يئن لي أن تجلي عمايتي وأقصر عن ليلي بلى قد أنى ليا

والمعنى على كلا القولين أنّه حان للمؤمنين، وأنى لهم أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي جاء الحين والأوان لذلك، ما تردد عليهم من زواجر القرآن ومواعظه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾؛ المصدر المنسب من أن وصلتها في محل رفع فاعل بأن، والخشوع أصله في اللغة السكون والطمأنينة والانخفاض، ومنه قول نابغة ذبيان: رماد ككحل العين لأياً أبينه ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع  
فقوله: خاشع أي منخفض مطمئن، والخشوع في الشرع خشية من الله تداخل القلوب، فتظهر آثارها على الجوارح بالانخفاض والسكون، كما هو شأن الخائف.  
وقوله: ﴿لِيُذَكِّرَ اللَّهُ﴾، الأظهر منه أن المراد خشوع قلوبهم لأجل ذكر الله، وهذا المعنى دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، أي خافت عند ذكر الله، فالوجل المذكور في آية الأنفال هذه، والخشية المذكورة هنا معناهما واحد.

وقال بعض العلماء: المراد بذكر الله القرآن، وعليه فقوله: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾؛ من عطف الشيء على نفسه مع اختلاف اللفظتين، كقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى﴾ ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى]، كما أوضحناه مراراً.  
وعلى هذا القول، فالآية كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَقَّصِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فالاقشعرار المذكور، ولين الجلود والقلوب عند سماع هذا القرآن العظيم المعبر عنه بأحسن الحديث، يفسر معنى الخشوع لذكر الله، وما نزل من الحق هنا كما ذكر.  
وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ قد قدمنا في سورة البقرة، في الكلام على قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ٧٤]، بعض أسباب قسوة قلوبهم، فذكرنا منها طول الأمد المذكور هنا في آية الحديد هذه، وغير ذلك في بعض الآيات الأخر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كثرة الفاسقين من أهل الكتاب جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَرَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهِيحُ فَزَرَّتْهُ مَصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾.  
قد قدمنا الكلام عليه في سورة الزمر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيحُ فَزَرَّتْهُ مَصْفَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا﴾، وبيننا هناك الآية الدالة على سبب اصفراره.  
قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنّ كل ما أصاب من المصائب في الأرض كالحط والجذب والجوائح في الزراعة والثمار، وفي الأنفس من الأمراض والموت كله مكتوب في كتاب قبل خلق الناس، وقبل وجود المصائب، فقوله: ﴿مِنْ



قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهُ، الضمير فيه عائد على الخليقة المفهومة في ضمن قوله: ﴿وَقِي أَنْفُسِكُمْ﴾؛ أو إلى المصيبة، واختار بعضهم رجوعه لذلك كله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي سهل هين لإحاطة علمه وكمال قدرته.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه لا يصيب الناس شيء من المصائب إلا وهو مكتوب عند الله قبل ذلك، أوضحه الله تعالى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة]. وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَنْبَلُوكُمْ بِثِيءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة]. ﴿وَلَنْبَلُوكُمْ بِثِيءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾؛ قبل وقوع ذلك دليل على أن هذه المصائب معلومة له - جلّ وعلا - قبل وقوعها، ولذا أخبرهم تعالى بأنها ستقع، ليكونوا مستعدين لها وقت نزولها بهم؛ لأن ذلك يعينهم على الصبر عليها، ونقص الأموال والثمرات مما أصاب من مصيبة، ونقص الأنفس في قوله: والآنفس، مما أصاب من مصيبة في الأنفس.

قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ

فَخُورٍ ﴿١٣٣﴾﴾؛ وقوله في آية الحديد هذه: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾؛ أي بينا لكم أن الأشياء مقدره مكتوبة قبل وجود الخلق، وأن ما كتب واقع لا محالة لأجل ألا تحزنوا على شيء فاتكم؛ لأنّ فواته لكم مقدر، وما لا طمع فيه قل الأسي عليه، ولا تفرحوا بما آتاكم؛ لأنكم إذا علمتم أنّ ما كتب لكم من الرزق والخير لا بد أن يأتيكم قل فرحكم به، وقوله: تأسوا، مضارع أسي بكسر السين يأسى بفتحها أسيّ بفتححتين على القياس؛ بمعنى حزن ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] وقوله: «من مصيبة» مجرور في محل رفع؛ لأنّه فاعل أصاب جر بمن المزيده لتوكيد النفي، وما نافية.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

بِالْقِسْطِ﴾. قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الشورى، في الكلام على قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، وقدّمنا هناك كلام أهل العلم في معناه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

بين الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة والتي قبلها، أن إقامة دين الإسلام تنبني على أمرين: أحدهما هو ما ذكره بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾؛ لأن في ذلك إقامة البراهين على الحق، وبيّن الحجة وإيضاح الأمر والنهي والثواب والعقاب، فإذا أصر الكفار على الكفر وتكذيب الرسل مع ذلك البيان والإيضاح، فإن الله - تبارك وتعالى - أنزل الحديد أي خلقه لبني آدم ليردع به المؤمنون الكافرين المعاندين، وهو قتلهم إياهم بالسيوف والرماح والسهام، وعلى هذا فقوله هنا: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾؛ توضحه آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يَدْعُبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْكُمْ عَلَيْهِمُ﴾ [التوبة: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]،

والآيات في مثل ذلك كثيرة معلومة، وقوله: ﴿وَمَنْفَعُ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، لا يخفى ما في الحديد من المنافع للناس، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: ﴿وَمِمَّا يُؤْتُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾ [الرعد: ١٧]؛ لأن مما يؤقد عليه في النار ابتغاء المتاع الحديد.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ﴾ (١٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ﴾ . . . الآية [الزخرف: ٢٨، ٢٩].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَعْرِفْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٨).

قد قدّمنا أن التحقيق أن هذه الآية الكريمة من سورة الحديد، في المؤمنين من هذه الأمة، وأن سياقها واضح في ذلك، وأن من زعم من أهل العلم أنها في أهل الكتاب فقد غلط، وأن ما وعد الله به المؤمنين من هذه الأمة أعظم مما وعد به مؤمني أهل الكتاب وإتيانهم أجرهم مرتين كما قال تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) - إلى قوله - ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ . . . الآية [الفصص: ٥٢ - ٥٤].

وكون ما وعد به المؤمنين من هذه الأمة أعظم أن إتياء أهل الكتاب أجرهم مرتين أعطى المؤمنين من هذه الأمة مثله كما بينه بقوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾، وزادهم بقوله: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَعْرِفْ لَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الفضل بيد الله وحده وأنه يؤتيه من يشاء جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَإِن يُرْدِكْ يَخْتَرِ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة له في أول سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لِمَنْ بَعْدَهُ﴾ [فاطر: ٢].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### سورة المجادلة

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مَّن سَاءَ بِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾؛ إلى قوله: ﴿فَاطْعَامٌ سِتْرَيْنَ مِثْلَ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مِمَّا كَانُوا يَكْفُونَ﴾. قد قدّمنا الكلام عليه موضحاً في سورة الأحزاب، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْزَاقَكُمْ إِلَيْهِ تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] وبيننا هناك كلام أهل العلم، وأدلتهم ومناقشتها في مسائل الظهار، ومسائل أحكام الكفارة بالعتق، والصيام، والإطعام، وأوجه القراءة في الآية.